حقيقة التربة الحسينية

الامام محمد حسين كاشف الغطاء

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله جل شأنه في فرقانه المجيد ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنا معرضون﴾ .

حقاً إن من أعظم تلك الآيات التي نمر عليها في كل وقت وعلى كل حال هي هذه الأرض التي نعيش عليها ونعيش منها ونعيش بها ، منها بدؤنا واليها معادنا . ﴿منها بدأكم واليها تعودون﴾ . لا نزال نمشي على الأرض ونثير ترابها في الحرث والنسل ونقلبها للغرس والزرع ونتقلب عليها للضرع والمرع ونزاولها في عامة شؤون الحياة ولا تزال تدرُّ علينا بخيراتها وبركاتها ونحن ساهون لاهون وعن آياتها معرضون غافلون عما فيها من عظيم القدرة وباهر الصنعة ودلائل العظمة والقوة ، هذا التراب الذي قد نعده من أحقر الأشياء وأهونها والذي هو في رأي العين شيء واحد وعنصر فرد ، كم يحتوي على عناصر لا تحصى وخواص لا تناهى تنثر فيه حب القمح مثلاً فيعطيك أضعافاً من نوعه وتنثر فيه الفول والعدس وأمثالهما من القطانيات المختلفة في الطعوم والخواص فتعيدها اليك مضاعفة مترادفة وتغرس في نفس ذلك التراب نواة النخل وبذرة الكرم وأقلام التين والتفاح وأمثالها من الفواكه فتثمر تلك الثمار الشهية المختلفة الأذواق المتغايرة الخواص .

التراب يُخرج لك البطيخ بأنواعه : أصفره وأحمره وأبيضه بتلك الروائح الطبيعية العطرة وكله حلو منعش ويُخرج لك الحنظل وكله مرّ مهلك ، كل هذا والشكل متشابه والخضرة متماثلة والماء واحد والتربة واحدة ، كما في القرآن «يسقى بماء واحد» والماء ماء ، ولما يستوي الشجر التراب واحد والمستقي واحد والثمرات والنتائج مختلفة ، فمن أين جاء هذا الاختلاف العظيم ؟ أليست كلها عناصر في الأرض يأخذ كل واحد من تلك البذور ما يلائمه من تلك العناصر الكامنة في التراب المكونة لتلك الثمرة والأنواع المختلفة لا يختلط واحد بالآخر ولا يشتبه نوع بنوع ، كل ذلك على نظام متسق ووزن متفق وعيار معين كل فاكهة في فصلها وموسمها ، فربيعية لا تدرك في الخريف وخريفية لا تنضج في الصيف وصيفية لا توجد في الشتاء ، وأعظم من هذا أثراً وعبراً ما تخرجه الأرض من المعادن . انظر الى هذه المعادن الثمينة والأحجار الكريمة من الذهب والفضة والياقوت والفيروز ونظائرها هل هي إلا من التراب ومن ثمرات الأرض ، بل ذكر لي بعض المولعين بالصنعة القديمة (علم الكيمياء) أن الإكسير الأعظم الذي يتطلبه أهل هذا الفن وبه يحولون الفلزات من واحد لآخر حتى ينتهي الى الذهب هو ايضاً من التراب ، ولقد أبدع العارف الرباني الشيخ محمود الشبستري في رسالته المنظومة الموسومة (گلشن راز) حيث يقول فيها :

شعاع آفتاب أزجرم أفلاك نگردد منعكس جزبر سرخاك
توبودى عكس معبود ملائك ازآن گشته تومسجود ملائك

وملخص ترجمته : إن الشمس وهي في الفلك الرابع (على الهيئة القديمة) لا ينعكس شعاعها إلا على التراب ولولا التراب لما كان لأشعة الشمس فائدة وأثر . ثم يقول انعكست فيك صفات معبود الملائك أيها الانسان لهذا صرت مَحل سجود الملائكة ، نعم نعود الى الأرض فنقول والأرض هي أم المواليد الثلاثة : الجماد ، والنبات ، والحيوان ، وتحوطها العناية بالروافد الثلاثة : الماء ، والهواء والشمس فهي الحياة وهي الممات وفيها الداء ومنها الدواء وقد تحصي نجوم السماء أما نجوم الأرض فلا تحصى .

نعم لا تحصى نجوم الأرض ولا معادن الأرض ، ولا عناصر الأرض ولا تزال الشريعة الإسلامية قرآنها وحديثها يعظم شأن الأرض وينوه عنها صراحة وتلميحاً فيقول : ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾ ﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ ﴿فلينظر الانسان الى طعامه أنّا صببنا الماء ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وأبا﴾ .

دع عنك ما تخرجه الأرض من نبات وأشجار وحبوب وثمار ومعادن وأحجار ، ولكن هلم الى هذا الانسان ذي العقل الجبار الذي سخر الأثير والبخار والكهرباء والذرة فهل يكون إلا من التراب وهل عناصره وأجزاؤه التي التأم جسمه منها إلا من التراب وهل يتلاشى ويعود إلا الى التراب .

ولعل من أجل شرف التراب وقداسته وعظيم خيراته وبركاته كنّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصيه وأحب الخلق إليه علياً(ع) بأبي تراب وكانت أحب الكنى الى أمير المؤمنين(ع) ومنها قد استخرج عبد الباقي العمري معنى شعرياً عرفانياً حيث قال :

خلق الله آدماً من تراب فهو ابن له وأنت أبوه

ولعل من هنا أيضاً ينكشف سر تقبيل الأرض بين يدي الملوك تعظيماً لهم يعني قدست الأرض التي أنشأتك ومنها تكونت وقال الحكيم العارف (الخيام) في بعض رباعياته :

أي خاك اكر سينه توبشكافند بس گوهر قيمتي است درسينه تو

وترجمته : أيها التراب لو يشقون عن قلبك وينظرون الى باطنك لوجدوا فيه الكثير من الجواهر الكريمة ذوات القيمة العظيمة ، وأبدع من هذا قول بعض آكابر العرفاء الشامخين في (ترجيع بند) له فيه بدائع الأسرار والحكم يقول فيه :

دل هل ذرءكه بشكافي آفتابيش در ميان بيني

وترجمته : قلب كل ذرة إذا شققته ونظرت فيه تجد شمساً منيرة فيه وقد حاول بعض الرجال البارزين من المصريين ممن له إلمام بالأدب الفارسي أن يجعل هذا النظم إشارة الى الذرة التي هي من مخترعات هذه العصور ، أما هذا العاجز فلا شك أنه أراد هذه الذرة التي ملأت الأجزاء ومنها تكونت الأشياء وأراد بالشمس تلك الشمس التي أشرقت منها الشموس والأقمار فعميت عن ادراكها البصائر والأبصار .

نعم فهذه الأرض المباركة ذات الآيات الباهرة ألا تستحق التكريم والتعظيم والتعزيز والتقديس وفي الأحاديث النبوية ايضاً إشارة الى ذلك حيث يقول(ص) : (تمسحوا بالأرض

فإنها برة بكم) وفي آخر (إنها أمكم الحنون وأكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من فاضل طينة أبيكم آدم) وهذه كلها رموز وإشارات لا تخفى مغازيها على اللبيب ، إذاً فلا يتبين من هذا سر أمر الباري جل شأنه للملائكة جميعاً أن يسجدوا لآدم الذي خلقه من تراب وأنشأه من الأرض وأودع فيه جميع خواصها وعناصرها وفيه انطوى العالم الأكبر ، وقد حدثتنا الكتب السماوية عن السجود لآدم بأساليبها المختلفة فليسجدوا لآدم عبادة لله وتقديساً وتكريماً للأرض ذات الخيرات والبركات والمحيا والممات ومنه تعرف أيضاً سر امتناع إبليس المخلوق من النار عن السجود للأرض ، والعداء والنفرة طبيعي بين النار والأرض .

الأرض مجمعة والنار مفرقة والجمع قوة والفرقة ضعف الأرض باردة معتدلة والنار محرقة مشتعلة ، الأرض نمو وزيادة النار إفناء وإبادة ، الأرض يعيش بها كل حي والنار يهلك بها كل حي ، إذاً فليسجد الملائكة لآدم وليسجد أبناؤه لله على الأرض فإنها أمهم البرة الحنون .

ومن سمو الأرض على النار وشرفها الذي أشرنا الى طرف منه ومن بعض نواحيه يتضح لك أيضاً اندفاع مغالطة الشاعر القديم بشار بن برد في انتصاره لإبليس في تفضيل النار على الأرض بقوله من أبيات :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وهذه الحجة الواهية تستند الى دعامتين ساقطتين . **الأولى** : ان الأرض مظلمة ومما تلوناه عليك من منافع الأرض وبركاتها تعرف أن الأرض هي المشرقة والنار هي المظلمة ، الأرض حياة والحياة هي النور ، والنار لا حياة فيها بل تنعدم بها الحياة وعدم الحياة ظلمة ، الأرض أم الحياة والنار أم الموت وأين الحياة من الموت ، وكفى بالنار أن الله جعلها عقاباً ومآباً للعاصين ، وكفى بالأرض ان جعلها جنة عدن للمتقين .

الثانية : ان النار معبودة مذ كانت النار . وهذه أسقط من سابقتها فإن النار لم يعبدها من الأمم إلا المجوس حتى قيل :

مثل المجوسي في ظلالته تحرقه النار وهو يعبدها

وأما الأرض فلم تزل معبودة على أوليات الدهر بأصنامها وأوثانها وهياكلها ونواديها والجميع من الأرض ولا تزال أكثر الأمم وثنية الى اليوم وحيث تجلى شرف الأرض وقداستها ، إذن فليسجد الملائكة الذين ليسوا هم من الأرض لآدم وليد الأرض ولا يجوز السجود في شريعة الاسلام سجود عبادة إلا لله وإلا على الأرض أو نبات الأرض ومن أجل ما في الأرض من المواد المعقمة والعناصر المنقية جعلها الشارع في الإسلام مطهرة من الحدث تارة أي القذارة المعنوية التي لا يزيلها إلا الماء فإذا لم يوجد الماء أو لم يمكن استعماله ﴿فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ اقصدوا تراباً خالصاً نظيفاً طيباً فامسحوا فيه الجبين الذي هو واليدان أحوج الأعضاء الى النظافة وإماطة الغبار والأكدار عنهما لمزاولة اليد للأعمال ومباشرتها للأجسام المختلفة في الأسناخ والأوساخ فالتراب يقوم مقام الماء ، التراب أخ الماء والأرض أخته ، ومطهرة من الخبث اخرى حتى مع التمكن من الماء فتطهر باطن الحذاء والقدم وكثيراً من أمثالها كأسفل العصا ونحوها فلو تنجس باطن القدم أو الحذاء ومشيت على الأرض خطوات وزالت العين طهرت القدم ولا حاجة الى تطهيرها بالماء فالأرض مسجد والأرض طهور وإليه قصد الحديث النبوي المشهور ﴿جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً﴾ أي أينما

أدركتني الصلوٰة سجدت وصليت ومتى أعوزني الماء بها تطهرت فهي طاهرة ومطهرة ، نعم وهي مطهرة بما هو أوسع وأدق وأعمق معاني التطهير فإن فيها المواد المعقمة والعناصر المهلكة لجميع جراثيم الأوبئة والأمراض ومن أجل هذه الصفة والخصوصية في الأرض أوجبت الشرائع السماوية وبالأخص شريعة الاسلام دفن الأموات فيها ولا يجوز دفن الميت في غيرها وأن يوضع خده على الأرض ولا يجوز حتى القاؤه في البحر مع التمكن من دفنه بالأرض ولا إحراقه بالنار مع أن المتبادر بادىء النظر انه أبلغ في قمع جراثيم الأموات المضرة بالأحياء كما يصفه البراهمة الذين يحرقون أمواتهم ، ولكن أليس من الجائز القريب أن يكون جثمان الانسان يحمل أو تحمل فيه عن مفارقته الحياة مواد من ناشرات الأوبئة التي لو أحست بحرارة النار تطايرت في الفضاء قبل أن تحترق فتأخذ مفعولها في نشر الأمراض وتلويث الهواء وكذا لو ألقيت في البحار أو الأنهار تنمو وتشتد بخلاف ما لو دفنت في التراب ولعل فيه مواد من خاصيتها تلف تلك الجراثيم المختلفة الأنواع التي لو انتشرت لأهلكت كل حي حتى النبات . وقد أيد العلم الحديث هذه النظرية حيث اكتشف بعض علماء الغرب حسبما نقل أن في التراب مادة تقتل مكروب كل مرض من الأمراض كالسل والتيفو والملاريا وغيرها ولولا تلك المادة المعقمة في التراب لانتشر من جسد كل ميت أنواع من الأمراض تقضي بالفناء على كل الأحياء أو لعل إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾ .

فقد ذكر اللغويون أن معاني «الكفت» الجمع والضم والإماتة يقال كفته الله أي أماته فيكون المعنى المشار إليه في الآية أن الأرض تجمع وتضم الأحياء ثم تجمع جراثيمها بعد الموت وتميتها فإن تمت هذه الاستفادة فهي احدى معجزات القرآن وهل ترى أن قدماء الفلاسفة ومتأخريهم من اليونان والهند والفرس وغيرهم فيما استخرجوه من خواص الأرض ومعادنها وحيوانها قد أحصوا كل ما أودعه الصانع الحكيم فيها من الكنوز والرموز والخزائن والدفائن ، كلا ولا عشر معشار منها ولعل نسبة ما وصلوا اليه مما تمنع عليهم نسبة الذرة من الفضاء والقطرة من الدماء ولا يزال العلم والبحث يأتي بالعجائب ولا ينتهي حتى تنتهي الدنيا ولن تنتهي .

وإنما الغرض الإشارة الى أن هذه الأرض هي من أعظم آيات الله الباهرة نمر عليها ليلاً ونهاراً ونحن عنها معرضون ولو عرفنا اليسير من منافعها وطبائعها لتجلى لنا أنها الأم الحنون البارة بنا التي ولدتنا وأرضعتنا من أخلاف نعمها وخيراتها وما هذا البشر إلا غرس من غرسها وشجرة نامية من أشجارها أولدتنا على ظهرها وغذتنا من منتوجاتها وتردنا الى أحشائها ، وفي الحديث النبوي (إن الأرض برة بكم تتيممون منها وتصلون عليها في الحياة وهي لكم كفات في الممات وذلك نعمة من الله وله الحمد) وأفضل ما يسجد المصلي عليه التربة النقية .

وقد نوه عن بعض تلك المزايا الشاعر الحكيم العربي القديم الذي أدرك أول بزوغ شمس الاسلام ولم يسلم لأنه كان قد رشح نفسه للنبوة ولم تساعده العناية وتخطته الى من هو أحق بها وأجدر ، ذلك أمية بن أبي الصلت وكان ينظم المطولات الرنانة في السماء والعالم والمبدأ والمعاد والقبر والبرزخ الحشر والنشر والأفلاك والأملاك ففي بعض مطولاته يقول عن الأرض :

الأرض مـعقلنـا وكـانـت أمنـا فيـهـا مقـابـرنـا ومنهـا نـولـد

وفي اخرى :

هي القرار فما نبغي بها بدلاً ... ما أرحم الأرض إلا أننا كفر
منها خلقنا وكانت أمنا خلقت ... ونحن أبناؤها لو أننا شكر

ومن الأيام الزكية في شريعة الإسلام هو يوم (دحو الأرض) وهو اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام وهو من أيام الصيام وفيه دحى الله الأرض من تحت الكعبة (أي بسطها ومدها وفيه دعاء جليل أوله : «اللهم داحي الكعبة وفالق الحبة وكاشف الكربة أسألك بهذا اليوم من أيامك التي عظمت حقها وقدمت سبقها وجعلتها الإشارة بقوله تعالى ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ .

نعود فنقول أليست هذه الأرض حرية إذاً بالتقديس والكرامة والإجلال والعظمة وأن نسجد عبودية لله على النظيف منها تكريماً لها وشكراً لعظيم نعمته تعالى علينا بها وتنشيطاً للحركة الفكرية للانتقال من عظمتها الى عظمة خالقها والتفافاً الى أنها مع عجز القول والأفكار والأيدي العاملة في تحليل جميع عناصرها واستخراج كل جواهرها ليست هي بالنسبة الى سائر الكرات والكواكب والأنظمة الشمسية التي أحصى منها الملايين وما أحصى إلا اليسير منها ما هي إلا ذرة تسبح في بحر هذا الفضاء غير المتناهي . فما أعظم الخالق وما أدهش قدرته وعظمته وأبدع صنائعه وخليقته .

وكل ما ذكرناه من فضل هذه الكرة السابحة في بحر هذا الكون الذي لا ساحل له وهي الأرض معلوم واضح كما أن من المعلوم الواضح أن هذه الأرض مع حدتها وتساوي بقاعها وأجزائها ظاهراً ولكنها في الامتحان وفي ظاهر العيان أيضاً مختلفة أشد الاختلاف في البقاع والطباع والأوضاع ففيها الطيبة والخبيثة والحلوة والمالحة والسبخة والمرة واليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ وهذا الاختلاف شيء محسوس فقد يلقى الحارث في أرض قبضة قمح فيعود عليه ريعها بأضعاف البذر سبعين مرة وقد يلقيه في اخرى فيخيس ويحترق ولا يحصل حتى على البذر ولا شك أن الطيب النافع هو الحري بالكرامة والتقديس ولا يبعد أن تكون تربة العراق على الإجمال من أطيب بقاع الأرض في دماثة طينتها وسعة سهولها وكثرة أشجارها ونخيلها وجريان الرافدين عليها وما يجلبان من الأبليز وهو الذهب الإبريز واللجين الجاري والياقوت والذهب الأسود ثم لو تحرينا هذه السهول العراقية وجدنا من القريب الى السداد القول أن أسمى تلك البقاع أنقاها تربة وأطيبها طينة وأذكاها نفحة هي **تربة كربلاء** تلك التربة الحمراء الزكية وكانت قبل الإسلام قد اتخذت نواويس ومعابد ومدافن للأمم الغابرة كما يشعر به كلام الحسين سلام الله عليه في احدى خطبه المشهورة حيث يقول : (وكأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء) .

وهذه التربة هي التي يسميها أبو ريحان البيروني في كتابه الجليل (الآثار الباقية) التربة المسعودة في كربلاء .

نعم ، وإنما يعرف طيب كل شيء بطيب آثاره وكثرة منافعه وغزارة فوائده ويدل على طيب الأرض وامتيازها على غيرها طيب ثمارها ورواء أشجارها وقوة ينعها وريعها وقد امتازت تربة كربلاء من حيث المادة والمنفعة بكثرة الفواكه وتنوعها وجودتها وغزارتها حتى أنها في الغالب هي التي تمون أكثر حواضر العراق وبواديه بكثير من الثمار اليانعة التي تختصها ولا توجد في غيرها .

إذاً فليس من صميم الحق والحق الصميم أن تكون أطيب بقعة في الأرض مرقداً وضريحاً لأكرم شخصية في الدهر . نعم لم تزل الدنيا تمخض لتلد أكمل فرد في الانسانية وأجمع ذات لأحسن ما يمكن من مزايا العبقرية في الطبيعة البشرية وأسمى روح ملكوتية في أصقاع الملكوت وجوامع الجبروت فولدت نوراً واحداً شطرته نصفين سيد الأنبياء محمداً ، وسيد الأوصياء علياً ثم جمعتها ثانياً فكان الحسين مجمع النورين وخلاصة الجوهرين كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : (حسين مني وأنا من حسين) ثم عقمت أن تلد لهم الأنداد أبد الآباد وإذا كان من حق الأرض السجود عليها وعدم السجود على غيرها أفليس من الأفضل والأحرى ان يكون السجود على أفضل وأطهر تربة من الأرض ؟ وهي التربة الحسينية وما ذلك إلا لأنها أكرم مادة وأطهر عنصراً وأصفى جوهراً عن سائر البقاع فكيف وقد انضم شرفها الجوهري الى طيبها العنصري ولما تسامت الروح والمادة وتساوت الحقيقة والصورة صارت هي أشرف بقاع الأرض بالضرورة كما صرح بذلك بعض الأفاضل من كتاب هذا العصر[1] وشهد به الكثير من الأخبار والآثار واليه أشار السيد قدس سره في منظومة الفقه الشهيرة بالبيت المشهور :

ومن حديث كربلا والكعبة لكربلا بان علو الرتبة

وقد تلاقفت ذلك الشعراء من زمن الشهادة الى اليوم تفننوا في بيان فضل هذه التربة وقداستها وشرفها واستطالتها على جميع بقاع الأرض بالفضل والشرف ولو جمع كل ما قيل فيها لجاء مجلداً ضخماً ، وفي زيارة الشهداء مع الحسين سلام الله عليه وعليهم (أشهد لقد طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم) وقد اتفقت كلمات فقهائنا في مؤلفاتهم مختصرة ومطولة الى ان السجود لا يجوز إلا على الأرض أو ما ينبت منها غير المأكول والملبوس وأفضله السجود على التربة الحسينية ومن تلك المؤلفات الجليلة (سفينة النجاة) لأخينا المرجع الأعظم في عصره الشيخ أحمد كاشف الغطاء قدس سره . وقد علقنا على تلك الفقرة من الكتاب ما يلي :

(ولعل السر في التزام الشيعة الامامية السجود على التربة الحسينية مضافاً الى ما ورد في فضلها من الأخبار ومفادها الى أنها أسلم من حيث النظافة والنزاهة من السجود على سائر الأراضي وما يطرح عليها من الفرش والبواري والحصر الملوثة غالباً من الغبار والميكروبات الكامنة فيها مضافاً الى كل ذلك لعل من جملة الأغراض العالية والمقاصد السامية ان يتذكر المصلي حين يضع جبهته على تلك التربة تضحية ذلك الامام نفسه وآل بيته والصفوة من أصحابه في سبيل العقيدة والمبدأ وتحطم هياكل الجور والفساد والظلم والاستبداد ، ولما كان السجود أعظم أركان الصلاة وفي الحديث (أقرب ما يكون العبد الى ربه حال سجوده) مناسب أن يتذكر بوضع جبهته على تلك التربة الزاكية اولئك الذين وضعوا أجسامهم عليها ضحايا للحق وارتفعت أرواحهم الى الملأ الأعلى ليخشع ويخضع ويتلازم الوضع والرفع ويحتقر هذه الدنيا الزائفة وزخارفها الزائلة ولعل هذا هو المقصود من أن للسجود عليها يخرق الحجب

---

(١) هو العلايلي في كتابه عن الحسين والعقاد في ابو الشهداء في صفحة ١٤٥ جاء فيه ما نصه : فهي (أي كربلاء) اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد لحق لها ان تصبح مزاراً لكل آدمي يعرف لبني نوعه نصيباً من القداسة وحظاً من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى والزم لنوع الانسان من تلك التي اقترنت باسم كربلاء بعد مصرع الحسين فيها .

السبع كما في الخبر الآتي ذكره فيكون حينئذ في السجود سر الصعود والعروج من التراب الى رب الارباب الى غير ذلك من لطائف الحكم ودقائق الأسرار) .

فإذا وقفت على بعض ما للأرض والتربة الحسينية من المزايا والخواص لم يبق لك عجب واستغراب إذ قيل أن الشفاء قد يحصل من التراب وإن تربة الحسين عليه السلام هي تربة الشفاء كما ورد في كثير من الأخبار والآثار التي تكاد تكون متواترة كتواتر الحوادث والوقائع التي حصل الشفاء فيها لمن استشفى بها من الأمراض التي عجز الأطباء عن شفائها أفلا يجوز ان تكون لتلك الطينة عناصر كيماوية تكون بلسماً شافياً من جملة من الأقسام قاتلة للميكروبات وقد اتفق علماء الامامية وتضافرت الأخبار بحرمة أكل الطين إلا من تربة قبر الحسين عليه السلام بآداب مخصوصة وبمقدار معين وهو أن يكون أقل من حمصة وأن يكون أخذها من القبر بكيفية خاصة وأدعية معينة .

ولا نكران ولا غرابة فتلك وصفة روحية من طبيب رباني يرى بنور الوحي والإلهام ما في طبائع الأشياء ويعرف أسرار الطبيعة وكنوزها الدفينة التي لم تصل اليها عقول البشر بعد ، ولعل البحث والتحري والمثابرة سوف يوصل اليها ويكتشف سرها ويحل طلسمها كما اكتشف سر كثير من العناصر ذات الأثر العظيم مما لو تصل اليه معارف الأقدمين ولم يكن ليخطر على بال واحد منهم مع تقدمهم وسمو أفكارهم وعظم آثارهم وكم من سر دفين ومنفعة جليلة في موجودات حقيرة وضئيلة لم تزل مجهولة لم تخطر على بال ولا تمر على خيال وكفى (بالبنسلين) وأشباهه شاهداً على ذلك ، نعم لا تزال أسرار الطبيعة مجهولة الى أن يأذن الله للباحثين بحل رموزها واستخراج كنوزها والأمور مرهونة بأوقاتها ولكل كتاب أجل ولكل أجل كتاب ولا يزال العلم في تجدد فلا تبادر الى الإنكار إذا بلغك أن بعض المرضى يعجز الأطباء عن علاجهم وحصل لهم الشفاء بقوة روحية وأصابع خفية من استعمال التربة الحسينية أو من الدعاء والالتجاء الى القدرة الأزلية أو ببركة دعاء بعض الصالحين ، نعم ليس من الحزم البدار الى الإنكار فضلاً عن السخرية بل اللازم الرجوع في أمثال هذه القضايا والحوادث الغريبة الى قاعدة الشيخ الرئيس المشهور (كلما قرع سمعك من غرايب الأكوان تذره في بقعة الإمكان حتى يذودك عنه قائم البرهان) هذا بعض ما تيسر للقلم أن ينفث به مترسلاً بذكر شيء من مزايا الأرض وفلسفة السجود عليها وعلى التربة الحسينية بعد أن اتضح ان الشيعة لا يقولون بوجوب السجود عليها وعدم جواز السجود على غيرها من الأرض الطاهرة النقية وإنما يقولون أن السجود على الأرض فريضة وعلى التربة الحسينية سنة وفضيلة ، ومن السخافة أو العصبية الحمقاء قول بعض من يحمل أسراً البغض للشيعة أن هذه التربة التي يسجدون عليها صنم يسجدون له ، هذا مع أن الشيعة لا يزالون يهتفون ويعلنون في ألسنتهم ومؤلفاتهم أن السجود لا يجوز إلا لله تعالى وأن السجود على التربة سجود له عليها لا سجود لها ولكن أولئك الضعفاء من المسلمين لا يحسنون الفرق بين السجود للشيء والسجود على الشيء السجود لله عز شأنه ولكن على الأرض المقدسة والتربة الطاهرة وسجود الملائكة كان لله وبأمر من الله تكريماً لآدم ، نعم فقد صار السجود على التربة الحسينية من عهد قديم شعاراً شائعاً لهذه الطائفة (الشيعية) يحملون ألواحها في جيوبهم للصلاة عليها ويضعونها في سجاداتهم ومساجدهم وتجدها منثورة في مساجدهم ومعابدهم وربما يتخيل بعض عوامهم ان الصلاة لا تصح إلا بالسجود عليها ومنشأ هذا الانتشار ومبدء تكون هذه العادة والعبادة وكيفية نشوئها ونموها وتعيين أول من صلى عليها من المسلمين ثم شاعت وانتشرت هذا الانتشار الغريب هو أن في بدء بزوغ شمس الاسلام في المدينة أعني في السنة الثالثة من

الهجرة وقعت الحرب الهائلة بين المسلمين وقريش في (أُحد) وانهدّ فيها أعظم ركن للإسلام وأقوى حامية من حماته وهو حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله(ص) وأخوه من الرضاعة فعظمت مصيبته على النبي وعلى عموم المسلمين ولا سيما وقد مثلت به بنو أمية أعني به هنداً أم معاوية تلك المثلة الشنيعة فقطعت أعضاءه واستخرجت كبده فلاكتها ثم لفظتها وأمر النبي نساء المسلمين بالنياحة عليه في كل مأتم واتسع الأمر في تكريمه الى أن صاروا يأخذون من تراب قبره فيتبركون به ويسجدون عليه لله تعالى ويعملون المسبحات منه وتنص بعض المصادر ان فاطمة بنت رسول الله(ص) جزت على ذلك أو لعلها أول من ابتدأ بهذا العمل في حياة أبيها رسول الله(ص) ولعل بعض المسلمين اقتدى بها وكان لقب حمزة يومئذ سيد الشهداء وسماه ما نصه تقريباً (حمزة دفن في أُحد وكان يسمى سيد الشهداء ويسجدون على تراب قبره ولما قتل الحسين(ع) صار هو سيد الشهداء وصاروا يسجدون على تربته) انتهى .

ويؤيده ما في مزار البحار للمجلسي قدس سره ونصه :(عن محمد بن ابراهيم الثقفي عن أبيه عن الصادق جعفر بن محمد قال : إن فاطمة بنت رسول الله(ص) كانت سبحتها من خيط صوف مفتل معقود عليه عدد التكبيرات وكانت تديرها بيدها تكبر وتسبح حتى قتل حمزة بن عبد المطلب فاستعملت تربته وعملت منها التسابيح فاستعملها الناس . فلما قتل الحسين صلوات الله عليه عدل بالأمر إليه فاستعملوا تربته لما فيها من الفضل والمزية) انتهى .

أما أول من صلى عليها من المسلمين بل من أئمة المسلمين فالذي استفدته من الآثار وتلقيته من حملة أخبار أهل البيت ومهرة الحديث من أساتيذي الأساطين الذين تخرجت عليهم برهة من العمر هو ان زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام بعد أن فرغ من دفن أبيه وأهل بيته وأنصاره أخذ قبضة من التربة التي وضع عليها الجسد الشريف الذي بضعته السيوف كلحم على وضم فشد تلك التربة في صرة وعمل منها سجادة ومسبحة وهي السبحة التي كان يديرها بيده حين أدخلوه الشام على يزيد فسأله ما هذه التي تديرها بيدك فروى له عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبراً محصله : أن من يحمل السبحة صباحاً ويقرأ الدعاء المخصوص لا يزال يكتب له ثواب التسبيح وإن لم يسبح ولما رجع الإمام(ع) هو وأهل بيته الى المدينة صار يتبرك بتلك التربة ويسجد عليها ويعالج بعض مرضى عائلته بها فشاع هذا عند العلويين وأتباعهم ومن يقتدي بهم فأول من صلى على هذه التربة واستعملها هو زين العابدين الإمام الرابع من أئمة الشيعة الإثني عشر المعصومين ويشير الى ذلك في المجلد الحادي عشر من البحار في أحوال الإمام المزبور ثم تلاه ولده محمد الباقر الخامس من الأئمة وتأثره في هذه الدعوة فبالغ في حث أصحابه عليها ونشر فضلها وبركاتها ثم زاد على ذلك ولده جعفر الصادق(ع) فإنه نوّه بها لشيعته وكانت الشيعة قد تكاثرت في عهده من كبريات طوائف المسلمين وحملة العلم والآثار كما أوعزنا اليه في رسالتنا (أصل الشيعة) ، وقد التزم الإمام ولازم السجود عليها بنفسه ففي (مصباح المتهجد) لشيخ الطائفة الشيخ الطوسي قدس الله سره رواه بسنده انه كان لأبي عبد الله الصادق(ع) خريطة من ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد الله الحسين(ع) فكان إذا حضرته الصلاة صبه على سجادته وسجد عليه ثم قال : إن السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحجب السبع والمراد بالحجب السبع هي الحاءات السبع من الرذائل التي تحجب النفس عن الاستضاءة بأنوار الحق وهي (الحقد ، الحسد ، الحرص ، الحدة ، الحماقة ، الحيلة ، الحقارة) فالسجود على التربة من عظيم التواضع والتوسل بأصفياء الحق يمزقها ويخرقها

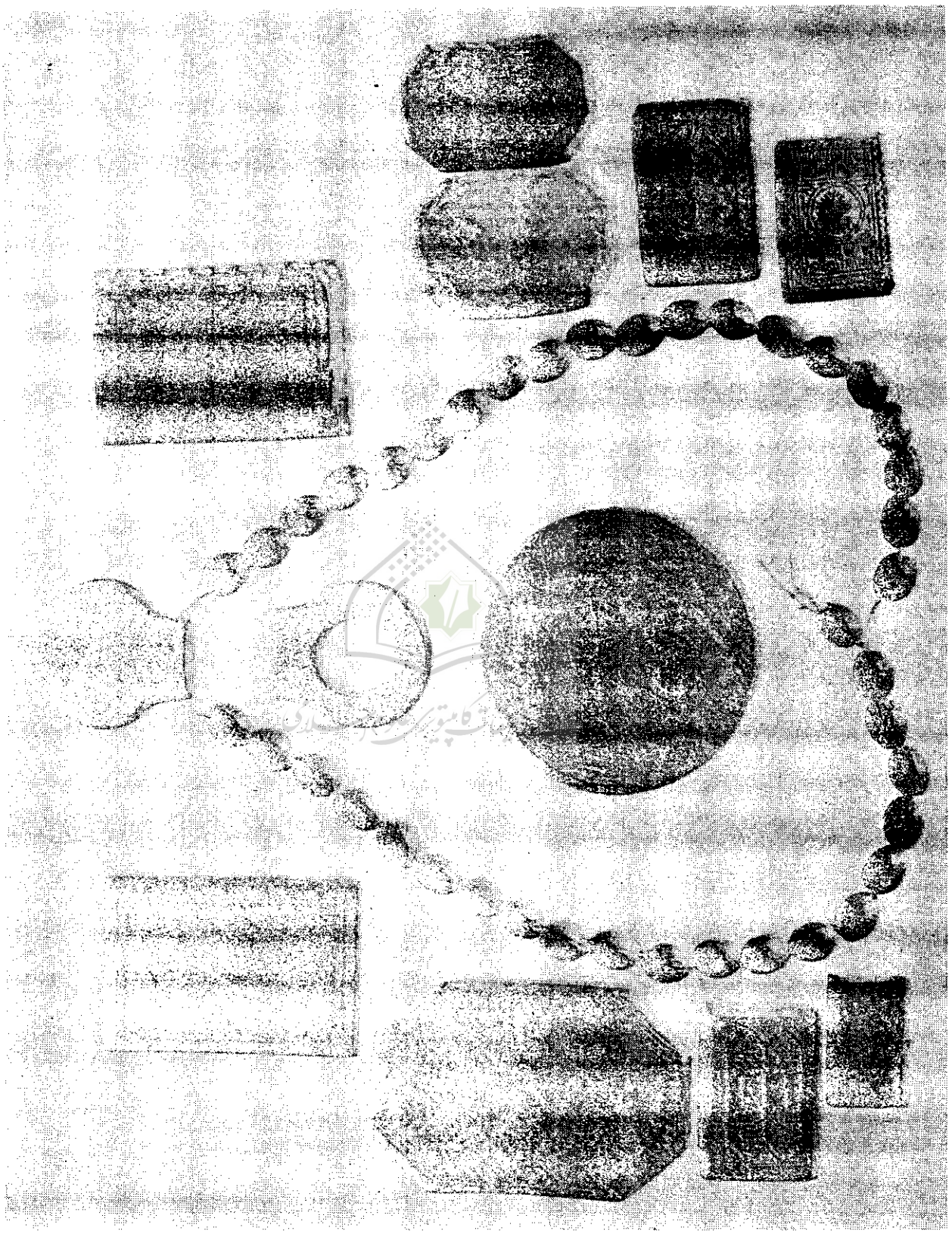

لوحة لعقد مكون من احدى وأربعين حبة من تربة النبك تتوسطه قلادة على شكل القلب كتب عليها «هو الحي ، لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي ولي الله» كما تروجد تربة مختلفة الأشكال والأحجام .

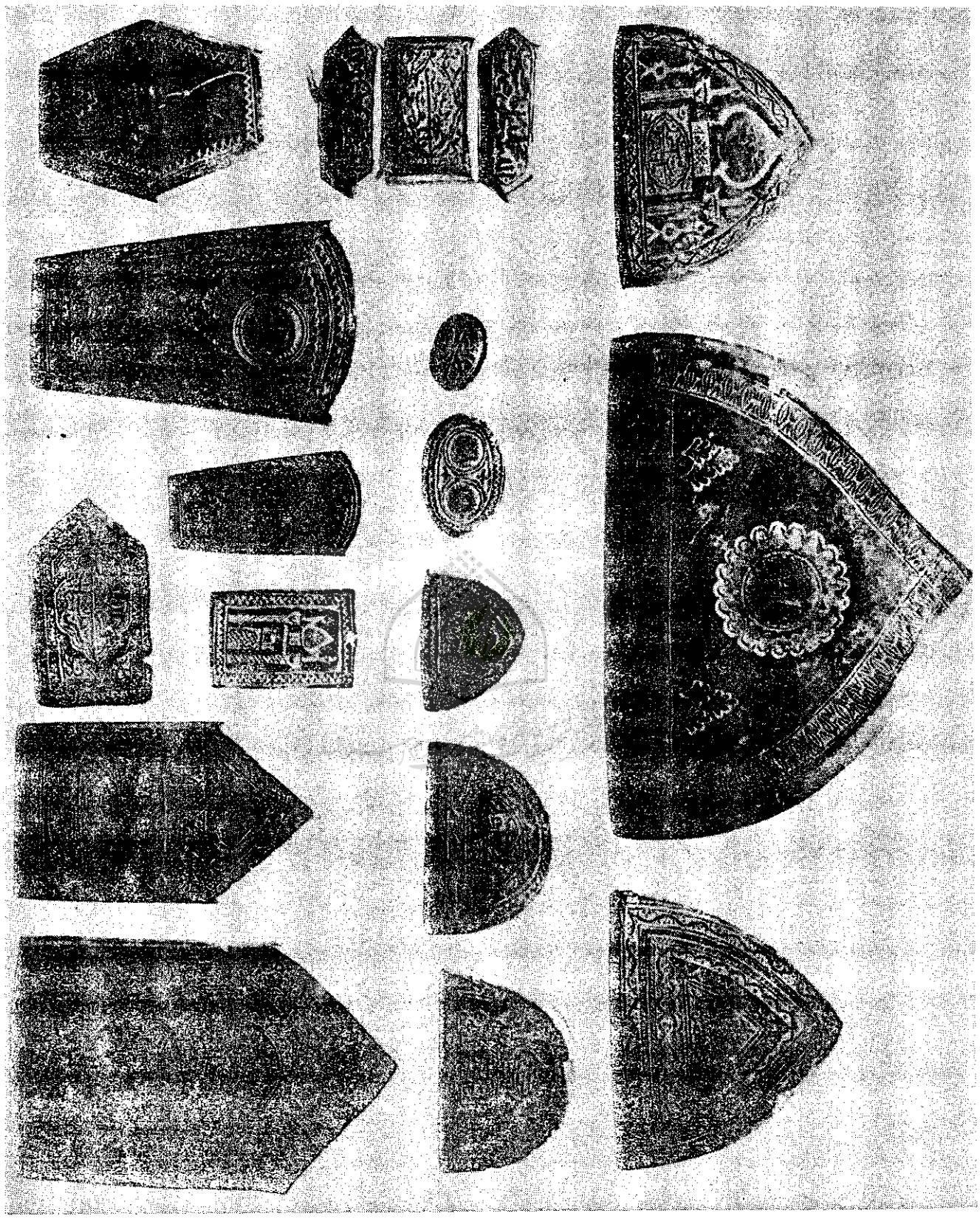

ثلاث عشرة تربة مختلفة الأشكال والأحجام ونعلان من تربة النجف وجزء من سعف نخل من ثلاث تطعم كتب عليها (الله محمد علي فاطمة الحسن الحسين).

ويبدلها بالحاءات السبع من الفضائل وهي (الحكمة ، الحزم ، الحلم ، الحنان ، الحصانة ، الحياء ، الحب) ولذا يروي صاحب الوسائل عن الديلمي قال كان الصادق(ع) لا يسجد إلا على تربة الحسين(ع) تذللاً لله والاستكانة اليه ولم تزل الأئمة من أولاده وأحفاده تحرك العواطف وتحفز الهمم وتوفر الدواعي الى السجود عليها والالتزام بها وبيان تضاعف الأجر والثواب في التبرك بها والمواظبة عليها حتى التزمت بها الشيعة الى اليوم هذا الالتزام مع عظيم الاهتمام ، ولم يمض على زمن الصادق(ع) قرن واحد حتى صارت الشيعة تصنعها ألواحاً وتضعها في جيوبها كما هو المتعارف اليوم .

فقد روي في الوسائل عن الإمام الثاني عشر الحجة(ع) ان الحميري كتب اليه يسأله عن السجدة على لوح من طين قبر الحسين هل فيه فضل ؟ فأجاب(ع) يجوز لك وفيه الفضل ثم سأله عن السبحة فأجاب بمثل ذلك ، فيظهر ان صنع التربة أقراصاً وألواحاً كما هو المتعارف اليوم كان متعارفاً من ذلك العصر أي وسط القرن الثالث حدود المائتين وخمسين هجرية وفيها قال روي عن الصادق ان السجود على طين قبر الحسين ينوّر الأرضين السبع وإن لم يسبح فيها ، وليس أحاديث فضل هذه التربة الحسينية وقداستها منحصراً بالشيعة وأحاديثهم عن أئمتهم بل لها في أمهات كتب حديث علماء السنة شهرة وافرة وأخبار متضافرة وتشهد بمجموعها أن لها في عصر جده رسول الله(ص) نبأ شائعاً وذكراً واسعاً والحسين يومئذ طفل صغير يدرج بل لعل بعضها قبل ولادته والنبي(ص) ينوّه عنها ويتحدث بفضلها ويتنبأ بما سيجري عليها من تلك الدماء الزاكية ويخبر بقتل الحسين وآل بيته وأنصاره فيها وإذا أردت الوقوف على صدق هذه الدعوى ومكانها من الصحة فراجع كتاب الخصائص الكبرى للسيوطي طبع حيدر آباد سنة ١٣٢٠ في باب إخبار النبي بقتل الحسين(ع) .

فقد روي فيه ما يناهز العشرين حديثاً عن أكابر الثقات من رواة علماء السنة ومشاهيرهم كالحاكم والبيهقي وأبي نعيم وأضرابهم عن أم الفضل بنت الحارث وأم سلمة وعائشة وأنس وأكثرها عن ابن عباس وأم سلمة وأنس صاحب رسول الله وخادمه الخاص به يقول الراوي في أكثرها أنه دخل على رسول الله(ص) والحسين في حجره وعينا رسول الله تهرقان الدموع وفي يده تربة حمراء فيقول الراوي ما هذه التربة يا رسول الله فقال أتاني جبرئيل فأخبرني أن أمتي ستقتل إبني هذا وأتاني بتربة من تربته حمراء وهي هذه وفي طائفة اخرى انه يقتل بأرض العراق وهذه تربتها وأنه أودع تلك التربة عند أم سلمة زوجته فقال : إذا رأيتها وقد فاضت دماً فاعلمي أن الحسين قتل وكانت تتعهدها حتى إذا كان يوم عاشوراء عام شهادة الحسين وجدتها قد فاضت دماً فعلمت ان الحسين قد قتل بل في هذا الكتاب (الخصائص) وفي (العقد الفريد) لعبد ربه أخرج البيهقي وأبو نعيم عن الزهري قال بلغني أنه يوم قتل الحسين لم يقلب حجر من أحجار بيت المقدس إلا وجد تحته دم عبيط .

وعن أم حيان يوم قتل الحسين أظلمت الدنيا ثلاثاً ولم يمس أحدهم من زعفرانهم شيئاً إلا احترق ولم يقلب حجر في بيت المقدس إلا وجد تحته دم عبيط .

أما أحاديث التربة الحسينية وقارورة أم سلمة وغيرها وشيوع ذكرها في حياة النبي وإخباره عن فضلها وعن قتل الحسين فيها قبل ولادة الحسين وبعد ولادته وهو طفل صغير المروية في كتب الشيعة والتاريخ والمقاتل فهي كثيرة مشهورة متضافرة بل متواترة لو اجتمعت لجاءت كتاباً مستقلاً ومن باب الاستطراد والمناسبة نقول إن نبينا(ص) كما أخبر بقتل ولده الحسين(ع) في كربلاء قبل وقوعه ودفع لزوجته أم سلمة من تربتها وأراها لجملة من أصحابه

كذلك أخبر بحوادث كثيرة ووقائع خطيرة قبل وقوعها فوقع بعضها في حياته وبعضها بعد رحلته من الدنيا .

(فمن الأول) إخباره بفتح مكة ودخولهم المسجد الحرام آمنين مطمئنين كما في القرآن الكريم وإخبارة بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين كما في القرآن أيضاً وإخباره بأن كسرى قد مات أو قتل وإخباره بالكتاب الذي مع حاطب بن بلتعة وكثير من أمثالها .

(ومن الثاني) إخباره بأن أصحابه يفتحون ممالك كسرى وقيصر وأن أصحابه يختلفون في الخلافة من بعده وإخباره بمقتل عثمان وشهادة أمير المؤمنين بسيف ابن ملجم وبسم ولده الحسن وغلبة بني أمية على الأمة وبشهادة قيس بن ثابت الشماس وبفتح الحيرة البيضاء وقضية المرأة التي وهبها لبعض أصحابه ولما فتح الحيرة خالد بن الوليد طلبها منه واستشهد بشاهدين من الصحابة فدفعها له وهي الشماء أخت عبد المسيح بن بقيلة كبير النصارى وقسهم الأعظم ، الى كثير من أمثال هذه الوقائع التي لو جمعت لكانت كتاباً مستقلاً ايضاً .

شهيد كربلاء

للشاعر محمود شاور ربيع*(مصر)

ولد «الحسين» حفيد «طه» المصطفى ... وعليه من نور النبي وسام
في بيت «فاطمة» تألق نوره ... وحبا الضياء وللبدور تمام
يا طالما حمل النبي حفيده ... والثغر ضحاك السنا بسام
سجد النبي وخلفه أصحابه ... فأطال حتى طوفت أوهام
سئل النبي عن الاطالة فانبرى ... وله على سمع الزمان كلام
ولدى اعتلاني فانتظرت نزوله ... ولدى الحبيب السيد المقدام
علمتنا في الحب درساً خالداً ... والحب قد أوصى به الاسلام
ورعى «عليّ» بالشجاعة شبله ... فتطايرت نحو المرام سهام
نهل البلاغة من نمير سلسل ... ومن النمير تروت الأحلام
وتتابعت في السير أفلاك السما ... وتتابعت في سيرها الأعوام
وعلى «الحسين» تضيء أنوار الهدى ... واليه يسعى المجد والاكرام
وتمر أيام النبي وصحبه ... ويقام للملك العريض دعام
ونرى معاوية يدعم ملكه ... والى يزيد سابق الحكام
ويسرى اليك من العراق رسوله ... وذعاك تنقذه وأنت همام
فرحلت في نفر كرام . كلهم ... يابى المذلة ، والكرام كرام
«وبكربلاء» وقفت تطلب رفعة ... وأبيت اسراً والأسير يضام
وثبت في وجه الطغاة ، ودأبكم ... يا آل طه في الوغى الاقدام
ولقيت ربك يا شهيد مقرباً ... ولقاتليك الذل والارغام
وضربت للدنيا مثالاً خالداً ... قرت به وبمجده الأيام

* عن مجلة منبر الاسلام (القاهرة) العدد ٢ السنة ٢٩ صفر ١٣٩١هـ (مجموعة السيد نسيب مرتضى) .